الأهرام

المصدر: الاتحاد

التاريخ : ٢٩ اغسطس ٢٠٠٢

من النتـــائج المستقبلية لماشـاكـــوس :

دولتان في السودان .. علمانية في الجنوب .. وثيوقراطية في الشمال

الفاضل عباس:

ليس هنالك أدنى شك في أن ما تم التوصل اليه في ماشاكوس الأولى يفضي لانفصال جنوب السودان، إذا ما تم توثيقه والتوقيع عليه في ماشاكوس الثانية الراهنة. وكما قال أحمد ماهر وزير الخارجية المصري فإن تلك نكسة كبرى ستحيق بالأمة العربية كلها، وهي بالنسبة للسودان الضربة القاضية والنهاية المشؤومة التي ليس لها شبيه الا ما حدث للعرب القاطنين في زنجبار عام 1967 على يد إسحاق كروم، وما حدث للعرب الامويين في الاندلس عام 1492م عندما تمت تصفيتهم وتطهيرهم عرقيا، وما حدث للعرب الفلسطينيين في عام 47 و48 و1949م بعد أن كانوا أغلبية ساحقة سائدة منذ عهود الكنعانيين قبل خمسة آلاف سنة، فإذا بهم لعبة في يد الأقلية اليهودية المدعومة بالاستعمار البريطاني ثم الأمبريالية الأميركية.

ومن المفارقات المدهشة أن الحركة الشعبية بقيادة قرنق ظلت تدعو لوحدة السودان طوال العشر سنوات المنصرمة وظلت في حلف عضوي وثيق مع المعارضة الشمالية التي تضم جميع ألوان الطيف السياسي - باستثناء المؤتمر الوطني الحاكم - وما كانت تحلم بأن عقارب الساعة ستعود بها لخطابها التأسيسي (يونيو 1983) الذي كان يتحدث عن الاستعمار الاستيطاني العربي الشمالي وضرورة تصفيته أسوة بالاستعمار البرتغالي الذي أفل نجمه في أواخر الستينيات وتمت تصفيته مع بداية السعينيات في كل من انجولا وموزمبيق وغينيا بيساو وجزر الرأس الاخضر، على يد الدكتور أوجستينو نيتو وساموارا ميشيل والدكتور أميلكار كابرال، على التوالي، متمنطقين بحركاتهم التحريرية المسلحة المتأسية بالشعب الفيتنامي.

هل ستقود ماشاكوس فعلاً لتفتيت السودان وتصفية الوجود العربي في جنوبه؟ نعم! ستقود ماشاكوس إلى إقامة نظامين: أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب، يحكمان بدستورين مختلفين، أحدهما علماني (للجنوب) والآخر ثيوقراطي (للشمال)، وذلك في حد ذاته إسفين ضخم سيتم زرعه بين شطري البلاد، ولقد ذكرت الأنباء أن الولايات المتحدة تكفلت بتنمية الجنوب على جناح السرعة، على غرار ما فعلت باوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية وفق مشروع مارشال، وعندما يشب الجنوب عن طوق التخلف الراهن، على يد المؤسسة الاقتصادية - العسكرية - الثقافية الأميركية ، وهو أصلا يتألف من سكان مسيحيين في الغالب الأعم.. فما الذي يتبقى بعدئذ من وشائج تلحمه بالشمال؟؟ هذا وسيكون الجنوب تحت امرة حكومة جنوبية مائة بالمائة، ذراعها الأيمن جيش الدكتور قرنق (الجيش الشعبي لتحرير السودان)، وذراعها الأيسر الوجود الأميركي المزمع الملتزم بحراسة وحماية اتفاقية ماشاكوس والتأكد من تطبيقها كاملة، حتى الاستفتاء الذي سيتم في آخر المرحلة الانتقالية. وهكذا، فإن المسار واضح وضوح الشمس، والنهاية مظلمة داكنة السواد، انشطار السودان الى نصفين، مثلما حدث في كوريا عام 1951م .. وقبلها فلسطين 1949م وفي الآونة الأخيرة .. تشيكو سلوفاكيا ويوغسلافيا وتيمور الشرقية التي انشطرت عن اندونيسيا .. وهلمجرا، باختصار شديد، على السودان السلام إذا سارت الأمور في ماشاكوس كما تريد الولايات المتحدة وأصدقاء الايقاد.

ومن الواضح جداً كذلك أن الجنوب لا يعني الرقعة المعروفة منذ الاستقلال عام 1956، فقد تمدد في ذهنية الحركة الشعبية ليشمل جبال النوبة ومنطقة أبيي بجنوب كردفان وحفرة النحاس الغنية باليورانيوم في جنوب دارفور ومنطقة الانقسنا بجنوب النيل الازرق، بدعوى أن القبائل المستوطنة بهذه الجهات ظلت مهمشة ومتمردة على الخرطوم كذلك، ولها تمثيل في الجيش الشعبي وأبلت فيه بلاء حسنا ما يجعل الحركة الشعبية تتبنى قضاياها كذلك وتدغمها في مشكلة الجنوب وعلى الأقل، لو نجحت المفاوضات نحو الحلول الوسطى بالنسبة لهذه المناطق فإنها سترسو على إجراء استفتاءات فيها تقرر بموجبها تلك الشعوب مصيرها، الانضمام للجنوب أم الشمال، والنتيجة كذلك واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار: «الميل نحو جنوب السودان»، بحكم الجوار اللصيق (باستثناء جنوب النيل الأزرق) وبحكم النضال المشترك طوال العقدين المنصرمين ضد كافة الأنظمة الحاكمة في الخرطوم، وبحكم الانسجام والتماهي التام مع كل طروحات الحركة الشعبية العسكرية والسياسية والثقافية والاستراتيجية، وبجامع العرقية غير العربية.

ماذا يتبقى من السودان؟ لاشيء يذكر، فالرقعة المحصورة بين خطي عرض 13 ش و21ش تلاشت فيها الأمطار وفتكت المجاعات بسكانها في الغرب والشرق منذ عام 1983م، وليس بها مورد مؤسس غير مشروع الجزيرة، بين النيل الازرق والأبيض، وهو أكبر مشروع في العالم ينتج القطن طويل التيلة بالري الانسيابي غير المكلف منذ عام 1925م؛ بيد أنه مشروع هرم، وفقدت

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

أثناء التوقيع

أرضه خصوبتها تماما بفعل الادارة الفوضوية طوال العقود الاربعة المنصرمة، وانسدت قنواته بسبب الاهمال وعدم الصيانة، وتغيرت صورته الديموغرافية بعد أن تعلم أبناؤه وترفعوا عن الاقامة بمزارعها الصغيرة والتي فتتتها الميراث بسبب التقسيم واعادة التقسيم مع كل جيل جديد .. فانعطفت الاجيال الحديثة نحو المدن الكبرى ونحو الاغتراب في الدول العربية المنتجة للنفط وغيرها، وحلت محلها العمالة القادمة من غرب أفريقيا.

وليست المسألة اقتصادية أو جغرافية بقدر ما هي سياسية بالدرجة الأولى، فقد ارتفع سقف المطالب الجنوبية فجأة ليشمل الانفصال، بعدما ظلت تراوح بين الفدرالية (الفدريشن) والحكم الذاتي على نسق ما تم عام 1972 بعد ابرام اتفاقية أديس أبابا بين جعفر نميري وجوزيف لاقو، وحتى عندما تم استدراج الحركة الوطنية الشمالية صوب (حق تقرير المصير)، كان مربوطاً بفهم واضح محدد أكده جون قرنق في اسمرا في يونيو 1995 وهو: (إذا انهار نظام الجبهة القومية الاسلامية وحلت مكانه حكومة قومية انتقالية وفق دستور علماني تعددي فإن الاستفتاء الخاص بحق تقرير المصير يصبح لا معنى له وسيتم تجاوزه).

وفي حقيقة الأمر ليس هنالك تباين كامل بين أهل الشمال والجنوب، كالذي يميز تيمور الشرقية عن باقي اندونيسيا، فالشماليون العرب هجين أسمر (شبههم المرحوم جوزيف قرنق الذي اعدمه النميري في يوليو 1971 بأنهم الأقرب للزنوج الاميركان)، ولقد تساءل كثير من المشاهدين حول الفرق بين قرنق والبشير عندما التقيا في كمبالا قبيل أيام، هذا إذا لم نذكر أمثال مطرف صديق ومهدي ابراهيم وعلي الحاج وغيرهم من الممثلين للجانب الشمالي في المفاوضات؛ أما غازي صلاح الذين فأهل السودان كلهم يعرفون أنه تركي - ألباني، وهذه فئة لا تزيد عن الخمسة في المائة من أهل الشمال، وهي عبارة عن مخلفات الحكم التركي العثماني (1822-1885م)، ولم تتزاوج مع باقي الشماليين الا بالنزر اليسير، وظل معظم احفادهم يسعون لاستعادة الراية العثمانية واقامة الخلافة الاسلامية التي كان آخرها السلطان عبدالحميد، الذي تصرم عهده في بداية القرن العشرين وجاء على انقاضه كمال اتاتورك .

وكذلك فإن الشمال والجنوب ممتزجان عضويا بالنسب والتزاوج، واقتصاديا باقتسام الكلأ والمرعى، وثقافيا بما تم من اختلاط بين القبائل الحدودية جعلها

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

مصافحة بين البشير وقرنق بعد حرب طويلة

تتميز برقص وموسيقى وايقاعات خلاسية تمازج بين العرب والأفارقة (بين الصحراء والغابة)، وفوق هذا وذاك فإن اللغة السائدة في الجنوب والتي يتفاهم بها الجنوبيون مع بعضهم البعض هي العربية (ما يسمى بعربي جوبا، وهي لهجة عربية أقرب للفصحى من بعض اللهجات العربية)، وكذلك فإن المزاج العام الجنوبي لا يستسخف العرب الشماليين ولا ينفر منهم، بل ان الفارين من جحيم الحرب لا يذهبون الا للشمال، وهنالك ثلاثة ملايين منهم موجودون في كل اصقاع السودان الشمالي وبلغوا حتى اقاصي الشرق والشمال والأهم من ذلك كله أن الحركة الشعبية بقيادة جون قرنق ظلت جزءا من التجمع الوطني الديمقراطي منذ عام 1995 وتقاسمت نفس الخندق مع الفصائل الشمالية المقاتلة - جيش الفتح وجيش الأمة وابناء دارفور وابناء البجة - ولعبت دورا هاما في بلورة مفهوم (السودان الجديد) الذي التفت حوله المعارضة الشمالية واصبح معظم المثقفين السودانيين حداة ودعاة له في الاعلام الداخلي والخارجي والساتيلايتي.

مع كل ذلك يصبح اختزال قضية الجنوب في (حق تقرير المصير المفضي لاحتمال الانفصال) أمرا لا يقدم عليه السودانيون الأصليون الذين يعرفون شعاب مكة جيدا، ولا ينسجم مثل هذا الاختزال الا مع الطروحات الغربية التي تبسط المسألة على الدوام باعتبارها حربا بين الشمال العربي المسلم والجنوب المسيحي الأفريقي، وهو تبسيط مخل ومأزوم وماكر، ولا يقود الا لما تتأهب له ماشاكوس في هذه الأيام: اتفاقية تتقاسم بموجبها الجبهة الحاكمة والحركة الشعبية السلطة والثروة، بترتيبات فترة انتقالية يعقبها انفصال جنوب السودان لا محالة، ومعه جنوب النيل الازرق وجبال النوبة وابيي وحفرة النحاس؛ ويتم ذلك في اجواء من التمويه وانصاف الحقائق التي يبثها الاميركان وتساعد فيها ابواق النظام الحاكم في الخرطوم لاستمرار الغفلة والاستكانة في السودان وفي المحيط العربي، مثلما كان يدور في الاعوام 47 و48 و1949م حتى برزت دويلة اسرائيل حقيقة على الأرض يدعمها ويحميها الغرب ظالمة أو مظلومة، فالحق في هذا الزمن مع القوة .. والقوة مع الولايات المتحدة بالدرجة الأولى .. وهنالك اربعة جنرالات اميركيون يشاركون في مفاوضات ماشاكوس، ومعهم جنرالان من بريطانيا واثنان من النرويج، كرمز لتلك القوة التي تتحفز للانقضاض على جنوب السودان.

تلك حقائق بديهية، ولكن يتعين علينا أن ندركها جيدا ونتذاكرها قبل فوات الأوان، قبل ضياع اندلس عربية أخرى.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية